الصليب ويمضي في طريقه، إلاّ تخشّعت لخشوعه وأكبرت قلبه العامر بالإيمان.

كنت أشعر أنّ الفلّاحين والعمال في روسيا يحملون على ظهورهم وأكتافهم جميع بطاح روسيا وجبالها، ويحملون فوقها أوزار طبقتهم وأوزار بقيّة الطبقات. فلا يرزحون ولا يئنّون ولا يندى لهم بالدمع جفن. إنّه لصبر ولا صبر أيّوب. وإنّها لصلابة ولا صلابة الصوّان. وإنّه لإيمان بعدل يأتي ولا إيمان إبراهيم. لا. ما عرفت من كلّ ما عرفت من شعوب الأرض شعباً يتحمّل المضض والحرمان وشظف العيش بمثل الصلابة والثبات والإيمان التي يتحمّلها بها الفلاح الروسي. ولا عرفت فلاحاً امتزج بالتربة التي يعمل فيها وشابهها حتى صار بعضاً منها، إلى حدّ ما امتزج الفلاح الروسي بتربته وشابهها. فهو قطعة منها. وهو منبسط مثلها. لا خبث فيه ولا التواء. وهو غني بالمواهب المكنونة فيه على قدر ما تربته غنية بقوّة الخصب والخيرات الدفينة فيها.

أمّا الطبقة الوسطى في روسيا ـ أو ما يدعونه البورجوازية ـ فكانت همزة الوصل بين الطبقات السفلى والعليا، تستمدّ من تلك وهذه. فلا عجب أن تكون فيها